إستراتيجية غربلة القيم في الأدب الجزائري الموجّه للطفل

د.حفصة جعيط بوخنشوش

قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة الجزائر2

ملخص

لا ينكر لبيب تأثير القيم في نفوس الأطفال لخطورة هذا الطور في حياة الإنسان، وهو سرّ التفات الأديب الجزائري إلى عالم الطفولة، ولكنّ الملاحظ أنّ طرائق توصيل القيم إلى عالم البراءة اختلفت من مرحلة إلى أخرى، فلم يتّخذ إدراج القيم شكلا أدبيا واحدا ولا مضمونا ثابتا. فقد تطوّر جنس وتراجع آخر، فقبل الاستقلال توجّهت عناية رجال الإصلاح إلى إحياء القيم الإسلامية، أما بعد الاستقلال ففرضت الحياة الجديدة أنماطا أخرى من التفكير وتوجّهت الجهود إلى ترجمة الآداب العالمية الموجّهة للطفل والاقتباس من الموروث الشعبي الخرافي والأسطوري.

الكلمات الدالة : الطفولة؛ أدب الطفل؛ القصة؛ القيم الأخلاقية؛ الشخصية؛ منظومة القيم؛ القيم الإنسانية، الطفولة الجزائرية.

Abstract

In the period following the independence, children's literature consisted mainly of works such as fairy tales, fables and legends translated from French. However, in recent years, there is an emergence of a profusion of works for children forming what can be called Algerian Children's Literature as a distinctive literary genre. It has grown in accordance with the mutations in the Algerian society of the post-colonial period as a multitude of writers capitalize on the moral and heroic values that fueled the Algerian Revolution. However, due to a certain number of reasons, this nascent literature has dwindled to give place to an imported children's literature that has massively submerged the book market, therefore disseminating non-Algerian values.

Keywords: children's literature; story; ethical values; moral values; personality; value system; human values; Algerian childhood.

Résumé

Nul ne saurait ignorer l'importance du rôle de l'enfance dans la vie humaine. Conscients de l'effet des valeurs de cette période sur les enfants, les écrivains algériens ont accordé un intérêt particulier au traitement de cette question en tenant compte de l'évolution de la société algérienne. C'est ainsi que pendant la période coloniale, ils ont exploité les valeurs morales et héroïques dans les genres littéraires, mais après l'indépendance leurs écrits sombrent dans les multiples traductions des œuvres universelles destinées à l'enfance, à savoir les légendes, et les fables.

Mots clés: la littérature pour enfants ; les valeurs morales ; la personnalité ; les valeurs humaines ; enfance algérienne.

1. اتصال حلقات الزمان في الشخصية الإنسانية

لا ينكر لبيب ما لمرحلة الطفولة من أثر في سلوك الراشدين الواعي واللّاواعي، فقد أثبت الدارسون في حقل البحوث النفسية أنّ الإنسان هو حصيلة تجاربه السابقة، ورغم مروره بأطوار منذ تكوينه الأول إلى هرمه فإنّ صفحات حياته تظلّ تتراكم ولا يمسحُ بعضَها الزمنُ إلاّ بفعل مرض يصيب جهازه العصبي.

يقسّم علماء النفس مراحل نموّ الطفل إلى أطوار مثل ما توصل إليه العالم جون بياجيه (1712– 1778) (Jean Piaget) الذي قسّم الطفولة إلى أربع مراحل وفق خصائص كلّ مرحلة، وتتمثل في مرحلة الحسّ الحركي ويميّزها النقل الحرفي أثناء التعلم والنمو المعرفي وهي محدودة لا تتجاوز السنة الثانية، وتليها مرحلة النمو اللغوي وسمّاها مرحلة ما قبل العمليات، ومنها ينتقل الطفل إلى طور حدوث التفكير المنطقي وترتبط هي الأخرى بالأعمال الملموسة وهذا ما يهيّئه إلى مرحلة التفكير المجرّد التي يميزها القدرة على الاستدلال والبحث عن حلول للمشكلات دون الاعتماد على تجارب سابقة، وهذا لا يعني أن الأطوار اللاحقة من حياة الإنسان منفصلة عن السابقة.(واردزورث. بي. جي، 1990)

فلطور الطفولة خطورته وصلته بالتجارب المستقبلية وأثره في توجيه حياة الإنسان الذي يظلّ في جوهره طفلا، وإن كانت هذه الحقيقة لا تترسخ في كلّ الأذهان الأمر الذي دفع جون جاك روسو Jean- Jacques Rousseau إلى الإلحاح على ضرورة الغوص في مفهوم الطفولة قائلا: «اعرفوا الطفولة». (الهيتي، 1988، ص13).

ومن السذاجة الاعتقاد أنّ طيّ الماضي والنظر إلى المستقبل يحقّق معادلة التحرّر الشعوري واللاشعوري من الزمن المنقضي من حياتنا، فالأزمنة تتداخل ولا تتجاور و«حوادث الشعور، حتى المتعاقبة تتداخل، وفي أبسط أحوالها، تعكس النفس بأكملها». (Bergson, 1970, p. 74.)

لهذه الأسباب يرى هنري برغسون Henri Bergson أنّ حاضر الإنسان ما هو إلاّ تجمع لحظات ماضيه وانبثاق منها، وراح يستحضر صورتين محسوستين متناقضتين للاستدلال على موقفه، تمثلت الأولى في انبثاق الثمرة من الزهرة، والثانية استحالة تشبيه اللحظات الإنسانية بمجموع كريات داخل كيس وكلّ كريّة منفصلة عن الأخرى (Bergson. 1970)

هذا الماضي الذي تختزنه ذاكرة الإنسان بأقسامها وينزل إلى بؤرة اللاوعي، ويسهم في تشكيل الشخصية الإنسانية جعل فرويد يشبهه «بجبل الجليد». وينبّه الباحث ك. غ يونغ Carl Gustav Jung إلى أهميته وخطورته في الوقت نفسه قائلا: «إضافة إلى المواد المكبوتة، يوجد في اللاوعي كلّ العناصر التي لم تعد محفوظة بتوتّر نفسي كاف في الوعي، انزلقت من تلقاء نفسها من جديد تحت عتبته».(يونغ، 1997، ص12)

أمّا في ديننا الإسلامي فهناك مؤشر صراح على الاهتمام بمرحلة الطفولة وعدّها لبنة تحصين الشخصية الإنسانية من مزالق الغد، والحجة الدامغة الحديث الشريف إذ يقول صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواها يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كمثل البهيمة تنتج، هل ترى فيها جدعاء» (صحيح البخاري: ج3. باب الجنائز، 1422هـ، ص196).

ويحفظ التاريخ أسماء كثير من المفكّرين والأدباء العرب والمسلمين الذين أدركوا ببصيرتهم النافذة أهمية الطفولة وحركة الزمان الخطية التي من شأنها نقل الإنسان من طور إلى آخر وكلّ صفحة لاحقة تطوي السابقة دون رجعة، من هؤلاء أبو حامد الغزالي وابن مسكويه (330 هـ– 421 هـ). ويضع فيلسوف الأدباء أبو العلاء المعري (336هـ– 449 هـ) نصب عينيه القيم العليا التي ترفع رجل الغد إلى مستوى الإنسانية قائلا :

ورفقا بالأصاغرِ كيْ يَقولُوا غَدَوْنا بالجميلِ معاملينَا
فأَطْفالُ الأكابرِ إنْ يُوَقُّوا يُرَوْا رِجالاً كاملينَ

(أبو العلاء المعرّي. 1993م، ص244).

فيحث على ترسيخها في نفس الطفل لتصبح علامة تطبع شخصيته، ولبلوغ المسعى لا بدّ من أخذه برفق يتّسق وحاجته إلى اليد العليا الحامية، وهذا اللين في تصوره هو الذي ينقلب رباطة جأش وقوة نفسية وشهامة، وهؤلاء أطفال الأمس قد يصبحون سراة القوم حكمة وإليهم توكل أمور الجماعة، فالنفس السليمة المتوازنة كفيلة بحماية من كان يطوّقها بالرعاية، أمّا الاشتداد على الطفل فلا يجرّ إلاّ الإحن والرغبة في الانتقام.

أما في العصر الحديث، وبالتحديد في الجزائر، فكان محمّد بن أبي شنب (1869– 1929) من الأوائل الذين سخّروا القلم، وبنظرة تقترب من الرؤية الحديثة، للدفاع عن حقوق الطفل وعدّه كيانا له وجوده بين الكبار رغم الوضع السوسيو– ثقافي المتأزم وقتئذ في الجزائر وذلك حين نقل إلى الفرنسية مخطوطا مكتوبا بلسان عربي مجهول الهوية بعنوان «خاتمة في رياضة الصبيان وتأديبهم وتعليمهم وما يليق بذلك» (Revue Africaine, bulletin1897 , des travaux de la société historique Algérienne, p. 267-268).

والغاية في تصورنا، البحث عن رؤية تصلح عطبا أصاب الطفولة العربية عموما والجزائرية خصوصا نتيجة صراع حضاري فرضته الحضارة الدخيلة، وتحت هاجس انهيار صلابة بنيان الأمة أمام ضربات الثقافة الغربية التي كانت وقتئذ تسعى إلى طمس الحضور العربي الإسلامي العريق في الجزائر. ويدخل عمله في ما يمكن أن نسميه بمشروع ابن أبي شنب الثقافي الذي اتخذ طابع المقاومة القلمية والمرجعية النهضوية، ويمكن القول إنّ ابن أبي شنب قد فهم دور هذا الزمن الإنساني في نشأة منْ سوف يسهمون في الانحراف أو الترقي الحضاري وهم الصبية.

2. الماضي وريادة المستقبل

أدركت الأمم المتحضرة، اعتمادا على ما جادت به جهود الباحثين في حقول العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع، أنّ لماضي الإنسان حدين: له أهمية في صيانة شخصيته من التصدّع وتهيئة التربة لنموّه الاجتماعي الطبيعي الخالي من الاضطرابات النفسية والسلوكية إذا كان حافلا بالتجارب المثمرة، أو مشوبا باتجاهات غير سوية تسهم في دفعه إلى انزلاقات السلوك الجانح واللامتوازن.

وبما أنّ الطفرة تنعدم في الحياة البشرية فإنّ العناية بالطفل تحقق معادلة التخطيط للمستقبل، وهذا سرّ توجّه هذه الأمم إلى ثقافة الطفل، فالطفولة «مرحلة الأساس والتكوين لجميع سمات الفرد وتكويناته الوراثية والبيئية، وهي التي تحدّد أبعاد نموه الرئيسية، ولكلّ مرحلة من مراحل النموّ خصائصها الجسمية الحركية والعقلية والإدراكية، وكذلك اللغوية والجمالية والانفعالية والروحية والدينية» (هدى برادة وفاروق صادق، دت، ص10).

فإلى أي مدى استطاع الأدب الجزائري الموجّه للطفل، وخاصة القصة، العناية بشريحة الأطفال وفهْم عالمهم وتوجيههم إلى المنهج السليم وترسيخ القيم العليا في ذاكرتهم؟

3. فلسفة بناء القصّة الموجّهة للطفل

1.3 تقنيات استقطاب الطفل

أصبح هذا الفنّ في الآداب العالمية امتدادا لمشروع تربوي يتجاوز النماذج القديمة المؤسسة في تربية الناشئة على الوعظ والإرشاد وشحن أذهانهم بكَم هائل من المعارف العلمية والفنية والتربوية، وقد اكتشف الخبراء في هذا المجال أنّ أنسب الأساليب لتحقيق الغايات التربوية مع الطفل هو استغلال ميوله وعلى رأسها اللعب، والحكي أنسب في هذا المجال. (جلولي، 2003، ص9)

كما شاع في أدبيات عصرنا التخلص البتة من مفهوم قهر الطفل وإلغاء تجاربه الذاتية الفردية، وطُرحت مقابل ذلك العلاقة التواصلية بين الطفل وعالمه الموضوعي. وبما أنّ المرسِل يخطّط لمُرسل إليه، أي الصغير، يقرع باب نفسه وذهنه فإنّ الغاية مشروطة بمراعاة البيئة والواقع الاجتماعي، والقدرات العقلية التي تميّز كلّ مرحلة عمرية للطفل. ويستخدم الوسائل الملائمة لتحقيق الأهداف بعد تشخيص الأزمات ولم يبق في فضاء هذا الفنّ مجال للارتجال، وليس «مفتوحا على مصراعيه بل هو دقيق يحتاج إلى دراسات تربوية تعني بمعرفة ميول الأطفال وتتعرف دوافعهم واهتماماتهم وخبراتهم». (الفيصل، 1981، ص41).

فمعيار نجاح الكاتب هو القدرة على «النظر إلى العالم الذي يحيط به من خلال نظرات الأطفال، أي من يستطيع تصوير الأشياء كما يراها الأطفال أنفسهم» (عبد الفتاح، 2008،

ص201)، وصياغة الكلام الجيد الجميل متعدد المنافع كإحداث المتعة الفنية، وإثراء فكر الطفل بشرط تحقق المقومات الخاصة من رعاية القاموس اللغوي للطفل، والتوافق مع الحصيلة الأسلوبية للسنّ وخصائص الثقافة، فيراعي القاص العربي المسلم المنظور الإسلامي والتكنيك الملائم للمرحلة. (أبو الرضا، 1993)

ويتسع هذا الجنس الأدبي لفنون أخرى كالرسم والموسيقى، فالقاص اليوم يضع نصب عينيه التأثير في الطاقات الإبداعية للقارئ الصغير وإعداده للمستقبل الواعد، وينظر إلى القصة على أنّها إحدى الوسائط المفجّرة للإبداع ولكن هذه الأهمية لأدب الطفل لم تكن لها فاعلية توحيد الجهود في العالم العربي عموما والجزائر خصوصا، في رسم إستراتيجية علمية لعمل منهجي منظم للبحث في مسألة الطفولة (الهيتي، 1988)، وظلّت السيادة للاجتهادات الشخصية، برغم ما انبرى إليه غيرنا في المسألة منذ عشرات السنين، ومن هؤلاء الباحثين عالم الاجتماع الفرنسي أميل دوركايم (1858–1917) «Emile Durkheim» الذي حاول أن يقدّم صورة عن كيفية انتقال القيم والأفكار إلى الأطفال. وأكّد على دور اتمع في تشكيل شخصية الطفل وعنى بدراسة نمو الطفل(الهيتي، 1988، ص18).

2.3 خصائص قصصنا الموجهة للأطفال

ظلّت التصورات عندنا لا تخرج عما أبدعه الآخرون واتخاذهم نموذجا لكلّ بحوثنا وكتاباتنا دون الاجتهاد مثلهم، وهذا لا يعنى الانكفاء على الذات والغرق في العزلة. وفي هذا الحقل يلاحظ الباحث الجزائري العيد جلولي، وقد خاض كثيرا في المسألة، أنّ بعض القصص الموجهة للطفل في الجزائر لا ترتقي إلى الكتابة السليمة ولا زالت تفتقر إلى التقنيات الحديثة ووسائل استقطاب الأطفال من مؤثرات نفسية وعناصر تشويق. (جلولي. 2003م)

كما نبّه إلى تداخل موضوعاتها واختلاف انتماءات مؤلفيها، فمنهم الجزائريون ومنهم غير الجزائريين الذين عاشوا في الجزائر، وفئة أخرى تجنسوا وكتبوا للطفل الجزائري ونشروا قصصا كثيرة «ومن هؤلاء خضر بدُور المعروف بغزارة إنتاجه، وعزّة عجان الذي نشرت له المؤسسة الوطنية للكتاب–سابقا–قصصا كثيرة،وعبد الوهاب حقيّ الذي ألف مجموعة قصص للأطفال، وحسن رمضان فحلة الذي كتب قصص الأنبياء» (جلولي، 2003، ص55).

إنّ قصص الأطفال ليست مجرّد ترف فكري بقدر ما هي إعداد لجيل مشبع الحاجات نفسيا وعاطفيا وعلميا واجتماعيا، ولكنها مازالت، رغم وفرتها، لا تسير وفق مسارها الحقيقي(عبد السلام.، 2011) ولا تأتلف هذه القصص كثيرا وشروط الحياة الحديثة التي تفرضها بنية المجتمع الجزائري، وتصاعد أزمات العصر الفكرية والاجتماعية وعهد

العولمة والثورة التكنولوجية، ولا يمكن للمجتمع الجزائري أن يبقى بمنأى عنها بفعل انتشار عدوى تنقّلها عبر وسائل الاتصال الحديثة.

4.نصيب الطفل الجزائري من التحصين عن طريق فنّ القصّ

1.4 التحصين التاريخي والقومي

لا تشكل الأزمنة التي تعتبرها الأمم حلقات متجاورة، فكلّ حاضر يتصل بالماضي والمستقبل ولا يعرف التاريخ الطفرة، ويمكن أن نمثل حلقات بناء الحضارات الإنسانية بمراحل عمر الإنسان التي يميّزها الترابط وأيّ خلل يصيبها يفقده توازنه، وقد طرح العلامة ابن خلدون (ت 808هـ) هذه الإشكالية في مقدّمته مدافعا دفاعا مستميتا عن قيمة التاريخ وأثبت دوره في صيانة ماضي الشعوب وأصل بقائها أو فنائها، وفضله في الاقتداء بالماضين أو الاتعاظ بأحوالهم والاعتبار بسيرهم يقول: «اعلم أنّ فنّ التاريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا». (ابن خلدون، 2007، ص 21).

يزخر تاريخ الجزائر والتاريخ العربي الإسلامي بصفة عامة ببطولات وعظماء نقش التاريخ أسماءَهم وهذا ما لا ينكره باحث نزيه، ولكن القصة الفنية لجزائرية الموجَّهة للقارئ الصغير لا تتناول هذه المادة التاريخية مع أنّه عامل تعبئة، وكأنّها لا تشيد بهذا الماضي بينما يكثر القصص الديني دون تحرّ للحقيقة كما يروج القصص الاجتماعي.

فهذه القصة الموجهة للطفل لا تستلهم من التاريخ سير الأبطال والعظماء وتختار أدوات بناء قصة فنية تنمي من خلالها في الطفل الاعتزاز بالنفس والقوم والوطن، وتبعد عنه شبح الانفصال عن الماضي فيصبح يدرك بالبديهة أنّ الانتماء خطّ أحمر لا يمكن تجاوزه. وما ورد من قصص استمدّ أصحابها مادتهم من التاريخ لم يستطيعوا الخروج من أسر القالب التاريخي الجاف البعيد عن النمط القصصي الحديث، ومن النماذج «سلسلة الأبطال» التي تتعرض لرجال كان لهم الفضل في صناعة التاريخ مثل عقبة ابن نافع والخلفاء (شوحان، د.ت) وهذه القصص «أقرب إلى كتب التاريخ منها إلى فنّ القصة الفنية». (أبو الرضا ، ص48)

أما الثورات الشعبية التي لم يستطع المستدمر بجيوشه اللجبة إخماد لهيبها عبر الزمن، ثم الثورة الجزائرية التي رجّت العالم وكان لها الصدى القوي في شتى الفنون الأدبية الموجهة للكبار في الجزائر وأوطان أخرى فإنها لم تستنهض همم المبدعين الجزائريين ليمنحوا للطفل نصيبه من المعرفة التاريخية التي يمازجها الفنّ دون تشويهها لتتقبّلها عقولهم. وظلّ أطفالنا مغيبين في مخيلات أدبائنا، الأمر الذي دفع محمد الصالح الصدّيق إلى

التساؤل عن سرّ هذا الإدبار عن التاريخ في هذا الصنف من القصص:«وهذه الدعائم متوفّرة في سير أبطالنا، وقصص ثورتنا، ولو عني كتابنا بثوراتنا المختلفة وخاصة ثورة التحرير، لقدّموا لناشئتنا وأجيالنا الصاعدة، ما يربّيهم خير تربية، ويهيئهم لخير مستقبل». (محمد الصالح الصديق، 1989، ص 24)

ويلاحظ العيد جلولي أنّ القصة الأولى في المجموعة التي ألّفها محمد الصالح الصديق لا تعدو أن تكون سيرة ذاتية للشهيد عميروش بعيدة عن القالب القصصي التشويقي.(جلولي، ص 25)

ومن قصص المجموعة التي تنقل مشاهد تصويرية لفظاعة المستدمر الفرنسي قصة«أحزان الملائكة» (محمد الصالح الصديق، 1989، ص 68)، وتتلخص في مأساة طفل يفْتِك به الجوعُ، ويشهد على بشاعة الجندي الفرنسي وهو يزهق روح أبيه، ويهتك عرض أخته ويفني أقاربه، ويدفعه إلى الهجرة تاركا مسقط رأسه وأمه في السجن. وهذه القصص التي حوتها المجموعة شحنت صورا قد تكون صادمة للطفل غير منسجمة مع عالم الطفولة كصور الدماء والعويل وهتك الأعراض، وإن كانت من صميم الواقع، بصفته يمثل النعومة والبراءة. غلب على هذه النصوص القصصية الطابع التقريري والوصف السطحي الذي لا يحرّك أشجان الصغار ولكنّها لا تخلو من فوائد قيمية، فهي تعزّز حبّ الانتماء إلى الوطن وترسّخ في الصغار قيمة الحرية ومكانة من قايضوا بالأرواح، والوفاء لهم والمحافظة على الوطن الأم .

والملاحظ أنّ القصص الفني الراقي الذي كان موضوع المدّ الثوري ظلّ حكرا على الكبار ولا يزال التاريخ عندنا لا يرتقي إلى مرتبة العلوم الأخرى، الأمر الذي هيّأ طائفة من الصبية إلى التنكر لماضيهم والانسلاخ من ماضيهم حين اشتدت سواعدهم.

وتأتي بعض هذه القصص مجهولة المؤلف وبمضامين وصور تدعو إلى الغرابة دون أن تجد الرقيب الذي يمكن أن يخضعها للتمحيص والغربلة مثل قصة «الجندي الصغير» (مجهولة المؤلف، د.ت، د. ط) التي تصور الطفل سمير يفكر بمنطق الكبار، وتظهر المجاهد بالزيّ العسكري الفرنسي مع أنّ هذا اللباس يرمز إلى قيم مضادة وحضارة دخيلة كانت تزاحم الحضارة الأصيلة وتحاول إفناءها، مما يدعو إلى التساؤل حول الغاية من مثل هذه النصوص

2.4. التحصين الديني

راجت القصة الدينية على نقيض التاريخية، وكانت أسبق من غيرها لأنّ الكتّاب وجدوا في القرآن الكريم وكتب السير مادة وافرة يستقون منها الأحداث، وهي في جوهرها ليست من الصنف الإبداعي. وهذا التوجُّه في القصّة يعزى إلى وعي الكتاب بالأزمة التي توقعوا حدوثها في مجتمع سلّط عليه المستدمر منهجية تدمير مسّت بنيته القوية التي يمثلها

الدين الإسلامي، ومرّ بظروف عصيبة برغم جهود حركة الإصلاح الديني. فكانت الغاية كما نتصوّره – صيانة الذات الجمعية من الوهن وإعادة بناء مجتمع قوي الثقة بالنفس مادام حامل لواء كتاب محفوظ، وصيانته من القطيعة مع الحياة الروحية التي أحدثها الشرخ القوي في المجتمع الغربي.

كما شعر هؤلاء الكتاب بحاجة المجتمع إلى أمثالهم في معالجة مشكلات وأزمات واقع متردّ، ومجتمع لم ينسحب منه المستعمر إلاّ بعد أن شوّه كثيرا من معالمه وألحق أعطابا مسّت بنيته التحتية. رأى هؤلاء المؤلفون أنّ الصبية أخصب تربة يزرعون فيها حكمة الإسلام والتعريف بالتراث العربي الإسلامي وإمكان الخلاص، وهو هدف يبدو بعيدا لكن الغاية هي تنشئة وتخريج جيل مؤهل روحيا واجتماعيا غير متماه بالحضارة الغربية التي تسلطت على الأمة الإسلامية عصورا، فتنوعت هذه القصص بين المعاملات الراقية التي حثّ عليها الدين والقيم العليا، وسير الأنبياء ومعاناتهم مع أقوامهم والاتعاظ بهم، وأسلوب التعاطي الصحيح مع طوارئ الأحداث من خلال الاعتصام بسير عظماء الإسلام.

ولكن هذه القصص عصية الفهم على أطفال المرحلة الأولى أو الثانية لتشابك عوامل، منها إيغال الأحداث في القدم واتصالها بأحكام شرعية بعيدة عن مدارك الطفل، ومفاهيم غيبية كالبحث والعقاب والجزاء في الدار الأخرى ومن هذه القصص «**سلسلة قصص الأنبياء للأطفال**» (رمضان فحلة، 1992)، التي تحوي ثلاثين قصّة بدءا من سيرة سيدنا نوح عليه السلام ووصولا إلى الرسول محمّد صلى الله عليه وسلّم، وحاول المؤلف التيسير على القارئ الصغير بمسلك رآه بيداغوجيا، فقسّم القصص إلى وحدات فكرية متعدّدة وجعل لكلّ وحدة عنوانا بارزا.

ليس من اليسير على الكاتب التصرّف في الأحداث حتى لا تشوّه الحقيقة الدينية والتاريخية، ولكن المطلوب من المبدع المحترف المحنّك أن يتفادى الموقف العاطفي المنغلق ويقف على حقيقة الطفولة، فيمتلك رؤية تجنّبه ما يصدّ القراء الصغار ويبعدهم من بناء علاقة قوية بالمطالعة، لأنّ الشائع في هذه القصص الطابع الوعظي التقريري المباشر الذي لا يتصل بالفنّ والجمال، وتكثر اللغة الصعبة والتراكيب المقتبسة من القرآن أو كتب السيرة، مما يكون عامل إبعاد القراء الصغار بدل استقطابهم مع أنّ التوجيه الديني منذ الصبا يحصّن الشخص ويكوّن فيه الوازع القوي والضمير الذي يتمثل في منظومة التعاليم الدينية التي لا تقوى أحدث نظريات علم نفس الطفل منافستها.

يتخلّل بعض هذه النصوص مواقف عنيفة لا يقتضي الأمر من المؤلف نقلها بحذافيرها، وإن كان التاريخ يحفظها، لأنّ الطفل بتصوره البسيط وفرط أحاسيسه قد تخدش مشاعره فيقع في ذهنه صراع القيم بصفته لا يستطيع النبش ليصل إلى الحقيقة، فمن جهة تقدّم له صور القيم العليا في الإسلام ومن ناحية أخرى يطّلع على صور الفتن ومشاهد

الدماء. ولا يتساوي الصغار في هذا الأمر «فالأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث تكوين كلّ منهم، وإنّه لا يوجد أي فردين متشابهين تشابها تاما على الإطلاق، بل لكلّ شخص طابعه الذي يميّزه عن غيره».(أبو العلاء، 1989، ص261)

فالظاهر أنّ الغاية من هذه القصص دينية، وهذا الأسلوب المباشر غير المطعّم بالخيال ومكوّنات القصة الفنية لا يجد طريقه إلى نفس الصّغير، فمثلا قصة «المتكلّمة بالقرآن» (مبارك حجازي، 1992م)، قصّة مرصّعة بالقرآن ولكن يستبعد أن تستميل مثيلاتها القارئ الصغير ،أو الكبير لأنّها مجرّد أسئلة من رجل وردّ عجوز بآيات كريمة بلغت الثلاثين آية. إذا كان تفسير النصوص القرآنية يقتضي الرسوخ في العلم والذكاء الوقّاد، فكيف بالصغير ورصيده اللغوي ضعيف ومداركه بسيطة يقبل على مثل هذه القصص. فالقصّة الموجهة للطفل تخضع لمعايير إبداعية مثل نظيرتها الموجهة للراشدين «فلا فرق بين قصّة للكبار، وقصة للصغار إلا في التبسيط والتوضيح والتحليل والابتعاد عن الغموض المفرط أو التعقيد الممزوج، ولا بإضافة إلى ذلك أن تشتمل على مغزى أخلاقي يدفع الطفل إلى التفكير». (محمد مرتاض، 1994، ص142)

5. غربلة التراث الشعبي وتحقيق الذات

تتّجه كثير من الشعوب إلى تراثها وأدبها الشعبي، ولا نتصوّر شعبا يفتقر إلى ثقافة شعبية، وهذا المخزون الثري في الثقافة الشرقية عامة والعربية خاصة حفّز بعض الأدباء العرب إلى الاستلهام منه في كتابة قصص للأطفال، فراحوا يقدّمون البطولات ومواقف الشجاعة وحلبات الصراع بين الخير والشرّ وتصوير انهزام الرذيلة وغيرها من أشكال الصراع لتنمية القيم الراقية في نفوس الناشئة، ولكن الدارسين في هذا المجال يكشفون عن تأخر أمم الشرق بالنسبة إلى الحركة الأدبية الغربية التي تمثّل الجهود الموحّدة والإفادة من التراث الشرقي والغربي مثل كتاب ألف ليلة وليلة ،وكتاب كليلة ودمنة، بينما لا يفيد الأديب العربي من تراثه إلا في حدود ضيقة (الهيتي، 1988)، ولا يخالف هذا الرأي العيد جلولي فيذهب إلى أنّ الأدباء الجزائريين لا يستثمرون جهودهم في هذا المجال ويؤثرون الاتجاه إلى الآداب العالمية يقتبسون منها (جلولي، 2003).

وهذه من النقائص التي تسجّلها الحركة النقدية في الجزائر على التأليف الموجّه للصغار، والمطلوب هو الاحتراز في الاستلهام من هذا التراث لأنّ المؤلف لا يأخذ المادة الخام الصالحة للكبار ويصبّها في قالب قصصي للصغار دون قيود، بل هو مطالب بالجهد لاختيار مواقف غير صادمة للطفولة بصفتها المرحلة الهشة من حياة الإنسان باتفاق علماء النفس، وبالتالي فإنّ المشاهد المخيفة في القصّة من شأنها أن تزرع البذرة الأولى للعنف في ذاكرة الصغير عندئذ تتحوّل الغاية التهذيبية إلى النقيض.

ومن أصناف القصص الخرافية المستلهمة من التراث الشعبي قصص الحيوان، ويحتلّ مساحة هامّة في الساحة الأدبية الجزائرية باعتبار أنّ الطفل بطبيعته يميل إلى عالم الحيوان ومنه اختار الأدباء الجزائريون شخصياتهم ومن النصوص في هذا المجال قصة «النملة والصرصور» (دوغان، 1984) ويدور موضوعها حول قيمة العمل والجدّ ونبذ التواكل والكسل، فالنملة لا يرتاح لها بال إلا بعد حصولها على رزقها والادّخار لمقبلات الأيام، بينما يقضي الصرصور زمنه في الغناء ولكنّ موسم الطّرب ينتهي وتضيق به الأحوال فيتوسّل النملة لتنقذه من مخالب الجوع، ومنها إلى الفأر دون جدوى، وينتهي به المطاف إلى الهلاك. فبقدر ما شُحنت القصة بقيم راقية فإنها عجزت عن صياغة توجيه مستقبل الصغير إلى الغد الأفضل فبدل تحريره من عالم الذات وتطهيره مما يمكن أن يعلق في نفسه من محيطه الخارجي تقوّي فيه الأثرة، والتصلب في الرأي، وتحجّر العواطف، ذلك أنّ الصرصور توسّل وبذل ماء وجهه ليحافظ على وجوده ولم يرحمه أحد وكأنّ الغناء جناية يستحق من يقرب منها العقاب، وكان في إمكان المؤلف أن يوجّه الأحداث إلى يقظة الصرصور ولكنّه اختار العنف نهاية للقصّة.

ومن الأساطير في أدبنا الشعبي الجزائري التي استلهمها الكاتب رابح خدوسي قصة «الأميرة السجينة» (خدوسي، 1996) التي يختار لها والدها زوجا يرتضيه هو من بين عشرات الفرسان، ويتخذ الوسامة معيار سعادة ابنته، ويغفل القيم العليا والفكر ولكنّه يقع في فخّ سوء اختياره حيث يتحوّل الشاب إلى حيوان مفترس يختطف الأميرة الحسناء، وبذلك يؤطّر الكاتب تقنية التحوّل التنازلي لتنتهي القصة نهاية سعيدة بفعل التعاون إذ استعان الملك بشباب خلصوا ابنته من مخالب الوحش دون إراقة دماء بعد أن اهتدوا إلى مكانها في قمة جبل بفضل حمامة بيضاء.

وهذه القصة هي الأخرى تحمل أبعادا إيجابية كالتعاون وإيثار السلم على إراقة الدماء ولكنّها لا تخلو من مشاهد الرعب فالشاب الوسيم الذي هيمن على قلب الأميرة ينقلب وحشا ضاريا وتلك صورة عنف لا تتوافق وعالم البراءة، فأدب الطفل ينبغي أن يحمل «كثيرا من الأهداف التربوية مثل التهذيب النفسي والتربوي والتعليمي» (عبد الفتاح، 2008، ص201).

وكانت قصص ألف ليلة وليلة ميدانا خصيبا للأدباء الجزائريين فمنهم من استلهم الأحداث والموضوع، ومنهم من اكتفى بالاقتباس ولا يعدّ خذا الأخير من قائمة المبدعين. اتّسمت النصوص بطابع المتعة وتدفق الخيال والثراء بالحكمة وصور من المجتمعات الشرقية منها قصة «علاء الدين والمصباح السحري» (مشعالة، دت) بطلها علاء الدين يقوم بالخوارق، فيصارع الشرور إلى أن ينتصر ولكنّ انتصاراته لا تعكس روحا صلدة مقاومة تدحر الشرور وهي في مستواها الإنساني لأنّه يستند إلى قوى غيبية تؤازره إلى أن يبلغ عتبة انتشاء النصر.

ترتبط هذه القصص بالوجدان الشعبي وتستثير خيال الطفل فتنقله إلى عالم الأحلام، وهو في هذه المرحلة أحوج إلى توسيع مخيلته «فالخيال هو أثمن هبة أعطتها الطبيعة للأطفال، وهو خيال واسع، أسع من حيال الراشدين وأخصب» (عبد الفتاح، 1999م، ص159) ولكن بعض المشاهد تحمل بعدا سلبيا، فعلاء الدين في الحقيقة واهن القوى، لولا الخوارق لسحقته النوائب، ومن شأن هذه القصص أن تشوّش على الصّغار فيعتقدون أنّ الجهد لا يكفي ولا بدّ من قوى خفية تكون عونا لهم في صراعهم مع الحياة، بينما يعدّ الجهد الإنساني في ثقافتنا الإسلامية أحد معايير النجاح (وَقُلِ اعْمَلُوا فسيَرى اللهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ والْمُؤمِنُون وسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فينبئكمَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (سورة التوبة، الآية 105).

وفي هذا الموروث الذي تغترف منه القصص كثيرا ما يكون الجان حليف الشخصية تستعين به لقوّته الخارقة التي لم يؤهّل لها البشر، كما أنّه يتحكّم في السحر ويتجلى ذلك في قصة «من وحي مغامرات سندباد البحري» لمحمد المبارك حجازي، و«مغامرات السندباد البحري» لقاسم بن مهني.

لا يتجاوز الأبطال طاقاتهم الإنسانية في هذه القصص ويمرون كسائر البشر باليسر والعسر، ويذنبون ويحسنون لكن المؤلفين في غالب الأحيان لا يضعون أحداث قصصهم في الميزان، ويبدو أنّ الإيجابيات وحدها هي التي تثير انتباههم ولا يحاولون التصرّف في مكونات القصة حتى يصرفوا الصغير عن صور سلبية قد تستقرّ في ذهنه. فهذه النصوص تنمي خيال الصغير إذ تكثر فيها المغامرات مما يعلمه الجرأة والشجاعة ولكن الشعوذة تحضر كالسحر، ودور الجان وبذلك تخالط الأوهام الحقيقة، بينما يتحتّم علينا أن ننقل الطفل إلى عالم المنطق ليفهم سرّ استخدام لجوء البشر قديما إلى الشعوذة، فالإنسان «ابتدع أساليب في استخدام الكلمة إلى جانب الصوت في أعمال السحر لتمنحه قوى خفية يستطيع بها فرض سلطانه على بعض الظواهر، واسترضاء قوى يجهل حقيقتها، أو محاولة وقف أخطار غامضة يجد فيها تهديدا له».(الهيتي، 1988م، ص13)

6. الترجمة والمنظومة القيمية

الترجمة هي إحدى وسائط التواصل مع الحضارات الأخرى وفكّ العزلة عن الأمم، فقد أثبتت تجارب الأمة العربية الإسلامية مدى فاعلية اقتراض العلوم والمعارف والفنون والسّير من الأمم الأخرى، والانتقال بها من طور النقل إلى طور الاستيعاب ثمّ الإبداع، إلاّ أنّ لها حدودا ومعايير يسوق عدم مراعاتها إلى إحداث تشويش في المنظومة الاجتماعية والفكرية للأمة. إنّ كثيرا من النصوص القصصية الموجّهة للكبار والمترجمة إلى العربية تحمل في طياتها ما يتعارض وقيم المجتمع الجزائري والعربي الإسلامي عموما وأعرافه وهو أثار حفيظة كثير من الدارسين الواعين بخطورة الأمر (عبد الفتاح، 2008م). ومن

هؤلاء هادي نعمان الهيتي الذي حمل على الجمود الفكري الذي تشهده الساحة الأدبية العربية والإقبال على الترجمة من التراث الأجنبي ويرى في هذا الإقبال الكبير على الإنتاج الغربي غزوا فكريا يتهدّد المجتمعات العربية الإسلامية مهّد له الفراغ وانعدام البديل الذي يسدّ حاجة الطفل العربي .

تقتضي ترجمة أدب الطفل الحنكة والتخصص، ونقل مضامين لا تشوبها الغرابة عن عالم الطفولة، ولابدّ أن تُلائم واقعه وأعرافا فتح عينيه عليها وطقوسا دينية ألفها، والغاية إبعاده مما يسوقه إلى التشتّت الذهني والتأرجح بين المفاهيم المتباينة لأنّ الأخيرة قد يرسخ بعضها في ذهنه ويشبّ عليها ومن طبيعة هذا الطور ميل الصبية إلى المحاكاة وقلة النقد وضعف تمييز الضار من النافع، فيقع للناشئة ما وقع لغراب كليلة ودمنة.

وهناك مضامين تحويها القصص المترجمة كالسحر والشعوذة تقوم بالأدوار فيها نساء مثل قصة «بياض»

الثلج والأقزام السبعة» (مجهولة المترجم، 1998) التي هي من التراث الألماني وهي من القصص العالمية وفيها تظهر زوجة الأب في صورة امرأة شريرة تمتلك قدرات عجيبة فتخادع الفتاة الجميلة لتبقى لها الريادة في الحسن.بمنحها مشطا وتفاحا مسمومين.

ولا نغفل دور الترجمة الإيجابي في الاطلاع على ما حققته الشعوب من ازدهار فني وعلمي في هذا الحقل الإبداعي مثل قصة «إلى أين تذهب بذور الهندباء» (إفيان يومو، دت) التي تبسط مسألة علمية بأسلوب قصصي جذاب تتعلق بالبذور ونمو النباتات. وعلى العموم فإنّ مترجم القصّة الفنية لابدّ أن يراعي الخصائص اللسانية للأمة والحضارية وقيم المجتمع وما يبثّه للطفل.

خاتمة

نخلص إلى أنّ القصّة الموجّهة للطفل الجزائري مازالت تبحث عن طريقها برغم الجهود في هذا المجال، ونرجّح عوامل ظهور كثير من الأمراض الاجتماعية في المجتمع الجزائري إلى إهمال هذه الشريحة وعدم العناية بالجمال الذي يرسّخ إدراك قيمة الحياة ودور الموجود عموما. فغرس هذا المفهوم في نفوس الصغار وتربية ذائقتهم على الفنون يفتح أمامهم آفاق إدراك النبيل والجميل وتمييزهما من القبيح ويروّضهم على ربط علاقة راقية مع العالم الخارجي. ونعتقد أنّ غياب الحسّ الجمالي هيّأ كثيرا من الصبية إلى العنف في طور رشدهم،كما أنّ لفوضى التأليف واقتباس ما يصلح ولا يصلح من قيم دورا في الشرخ الذي أخذ يصيب المجتمع الجزائري .

المراجع

1. ابن خلدون عبد الرحمن، 2007. المقدمة، تحرير: أحمد جاد، مراجعة: عبد الباري محمد الطاهر، دار الغد الجديد، ط1، القاهرة.
2. أبو العلاء محمد، 1989. قصة الطفل، مكتبة عين شمس، القاهرة.
3. البخاري، 1422هـ. صحيح البخاري، تحرير: محمد زهير بن ناصر الناصر، ج3، دار طوق النجاة، القاهرة.
4. حجازي محمّد مبارك، 1992. المتكلمة بالقرآن، شركة سوفاك، القرارة ، الجزائر.
5. خدوسي رابح، 1996. الأميرة السجينة، دار الحضارة، الجزائر.
6. دوغان أحمد، 1984. النملة والصرصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
7. شوحان أحمد، (د.ت). سلسلة الأبطال، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
8. الصديق محمد الصالح، 1989. عميروش وقصص ثورية، ط2، منشوررات دار دحلب، الجزائر.
9. عبد السلام يحي، 2001. سيمياء القصّ للأطفال في الجزائر، الفترة ما بين 1988–2000 نموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة فرحات عباس، سطيف.
10. عبد الفتاح إسماعيل، 1999. أدب الأطفال في العالم المعاصر، الدار العربية للكتاب، القاهرة.
11. فحلة حسن رمضان، 1992. سلسلة قصص الأنبياء، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
12. ك. غ. يونغ، 1997. جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية– سورية.
13. مجهولة المترجم، 1998. بياض الثلج، منشورات دار دحلب، الجزائر.
14. مجهولة المؤلف، (د.ت). الجندي الصغير، شركة تحويل الورق، (د. ط)، الجزائر.
15. مرتاض محمد، 1994. من قضايا أدب الأطفال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
16. مشعالة محمد، (د.ت). علاء الدين والمصباح السحري، الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة الجزائر.
17. المعرّي أبو العلاء، 1993. لزوم ما لا يلزم، ج 3. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
18. الهيتي هادي نعمان، 1988. ثقافة الأطفال، عالم المعرفة، عدد 123، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

19. واردزورث. بي. جي، 1990. نظرية بياجيه في الارتقاء المعرفي، ترجمة الأسدي وآخرون، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد.

20. يومو إفيانإلى، (د.ت). أين تذهب بذور الهندباء، تر دراجي سعيد. الزيتونة للإعلام والنشر.

21. يونغ. ك. غ، 1997. جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية – سورية .

22. Bergson Henri, 1970. Essai sur les données immédiates de la conscience, P.U.F, 144eédition, France.